تحديث الخطاب الثقافى للطفل المصرى

تحديث الخطاب الثقافى للطفل المصرى

د. كمال الدين حسين

مما لاشك فيه أن ٢٥ يناير ٢٠١١ كتاريخ وحدث يعتبر لحظة فارقة فى تاريخ الشعب المصرى الذى تربى لآلاف السنين على القهر والسلبية تجاه المطالبة بحقوقه المشروعة، إلا فى بعض الفترات التنويرية من تاريخه، التى أظهرت الكثير من الجوانب الإيجابية الدفينة فى نفس هذا الشعب، لكنها لعوامل كثيرة لم تدم طويلاً ، و"عادت ريما" كما يقولون.

لذلك تعتبر الفترة من ٢٥ يناير حتى ١٢ فبراير، فى رأيى - وأعتقد أن الكثيرين يتفقون معى - فى اعتبارها فترة الظهور الحقيقى لمعدن هذا الشعب، وظهور العديد من القيم الثقافية الإيجابية المختزنة فى وجدان هذا الشعب وشعوره، والتى ساعدته على الانتصار على الخوف الذى كان يسكنه، وتكيف به مع القهر لآلاف السنين، مرة بسبب تربية، تلقنه "أن العين ما تعلاش على الحاجب" فيرى لصوصًا من حوله ترتفع مكانتهم، فينظر إليهم باعتبارهم حاجب لا يرقى لمستواهم، أو فكر استعمارى يرفع شعار "إن طلع من الخشب ماشه، يطلع من الفلاحين باشا"، فيقنع بالمتدنى من الأعمال، وهذا قدره، أو قهر اقتصادى يجعله يقنع بما بين يديه ويقبلها ظهرًا عن بطن "فالعين بصيرة واليد قصيرة".

ساعد فى انتشار هذه الثقافة تعليم متخلف، وجسد مريض لا يجد العلاج، وإعلام موجه يمتدح الحاكم أيًا ما فعل، ومثقفون انتهازيون يسعون لمنصب أو اللحاق بموكب الميرى، ولا يهم فى أى الصفوف، طالما يحظون برضا السلطة الحاكمة. هذا خلاف أيد أمنية طائلة باطشة بكل من تسول له نفسه التغريد بعيدًا عن سربها.

جاء ٢٥ يناير وكسر كل هذه التابوهات، واستمر الشعب فى ثورته وتماسكه ووحدته حتى ١٢ فبراير، وفجأة وبدون مقدمات تحول الحال إلى النقيض، بدأت الفرقة، وتغليب المصالح الفردية، والسعى للحصول على مكاسب ضيقة، على حساب الوحدة والصالح العام، وبدأت الانتهازية السياسية فى التسلق وركوب الموجة، وتعددت أحزاب وتحالفات تضيق بها الساحة عددًا، وتضاربت التوجهات وتشابكت المقاصد واختلط الحابل بالنابل كما يقولون، كل يحاول فرض رأيه بأية وسيلة، بالقوة ممكن، بالوصاية جائز، وبدأت الآثار السلبية للتربية السابقة تطفو على السطح، خاصة بين الشباب الذين عول عليهم البعض الكثير من الآمال، فظهروا وكأنهم يسبحون فى بحر لا يعرفون شواطئه، والأدهى أنهم بدوا وكأنهم لا يعرفون السباحة أصلاً، فتلقفتهم أيادٍ تحاول الاستقواء بهم على خصومهم، أو تحاول استقطابهم، وأبدًا لم تحاول إنقاذهم، واكتشفنا أن شبابنا لا يعرف مع الأسف كيف يقرأ بوصلة الحياة المعاصرة، ولا بوصلة السياسة ذات العقارب المتداخلة، وهذا ما حذر منه فى الماضى كثير من المخلصين، ونادوا بضرورة تغير الخطاب التعليمى والثقافى، ومشاركة الشباب فى الحياة السياسية ولم تلق دعواهم إلا الأذن الصماء، حتى بدا وكأن الأمل لابد أن يتجه نحو الأطفال، شباب الغد ورجال الوطن، وإن كان البعض يرى أن الأمور فى مصر فى حاجة إلى زمن لتستقر، وقدرها أكثر المتفائلون بعشر سنوات، فلماذا لا نستغلها فى إعداد الأطفال من خلال تحديث الخطاب التعليمى والثقافى الموجه إليهم؟

أما لماذا الطفل؟ ذلك ببساطة لأنه عماد المستقبل، الأمل الذى يجب أن يبنى على أسس أكثر معاصرة وايجابية ومرونة، أسس تساعده على التعامل والتكيف مع متغيرات العصر والعصور القادمة، تصوب رؤيته نحو الواقع والمستقبل، وتحدد له احتياجاته وما يرتبط بها من حقوق وما عليه من واجبات فى ظل مسئولية ثقافية، تعمل على تحقيق الهوية الثقافية والوطنية التى يكتسب بها الحق فى المواطنة داخل وطن رفعته من رفعة أبنائه، وعزته عزة لأبنائه.

أما ضرورة تحديث الخطاب الثقافى بشكل عام، والأدبى بشكل خاص، فذلك من منطلق اعتبار الخطاب الأدبى بأشكاله المختلفة الوسيط التثقيفى الأكثر تأثيرًا فى عقول ووجدان الشباب والأطفال، والخطاب الأكثر تأثيرًا فى تكوين الهوية الثقافية العامة بما يتضمنه من وسائط إمتاع مباشرة وغير مباشرة، ومن خبرات ونماذج ومعارف يتعلم منها المتلقون الشيء الكثير.

وتشكل أشكال أدب الأطفال وما تتضمنه من محتوى ثقافى بجانب الخطاب المعرفى التعليمى الذى يقدم للأطفال فى المؤسسات التعليمية، الروافد الأساسية لتغذية نهر الهوية الثقافية العامة للمجتمع.

ولما كان هذا الخطاب قد اعتمد لسنوات طوال على نقل وتعليم السلوك و القيم الأخلاقية وما يجب وما لا يجب، والمعارف الجامدة بأساليب انتهى عمرها الافتراضى، فكان لابد من تحديث هذا الخطاب لمواكبة التغيرات العالمية من جهة، وللمساعدة فى تنشئة أجيال قادرة على تحمل مسئولياتها المستقبلية فى مجتمع يصبو نحو الحداثة والتغير من جهة أخرى. خاصة وأن الطفل اليوم يتعرض للعديد من قنوات التثقيف الفضائية متعددة الأهداف والإغراض والوسائل ، ولم يعد هناك تابوهات أو أمور محرم على الطفل أن يتلقاها، مما أحاط قدراته العقلية بالعديد من علامات الاستفهام الباحثة عن إجابات، ولن يستطيع الحصول عليها إلا من خلال خطاب ثقافى جديد، يهيئه للتعامل مع القضايا الحياتية عبر حدود وطنه، والتى تؤثر على وطنه، ويساعده على فك شفراتها وعلاماتها للوصول إلى الدلالات التى تضيف إلى بنيته الثقافية ولا تشككه فيها.

لابد إذن من تجاوز حدود الخطاب الأخلاقى والمعرفى التقليدى إلى خطاب جديد يتواصل مع الطفل منطلقًا من الظواهر والمفاهيم السياسية والاجتماعية والاقتصادية التى يتعرض لها يوميًا، فلم يعد هناك شىء منغلق عليه، مع مراعاة التدرج فى محتوى الخطاب تبعًا للخصائص العمرية، حتى لا يؤثر الخطاب الحديث بالسلب أو يفقد القدرة على جذب المتلقى الجديد. ومنها المفاهيم المرتبطة بمفهومى : المواطنة، والهوية (الثقافية أو الخاصة) التى التبست على كثير من الشباب، وتبعهما التباس أكبر بين مفاهيم أساسية للديمقراطية ورفاهية الإنسان المعاصر، وهى مفاهيم الحقوق، والتى يلتزم بتوفيرها المجتمع / الدولة، والواجبات التى تلزم المواطن، والمسئولية التى تحددها الثقافة العامة كما تظهر فى الهوية العامة لأفراد المجتمع.

ولما كان الإنسان يعيش فى مجتمع، مع غيره من البشر، يعملون جميعًا معًا من أجل استمرار وجودهم وحياتهم، من أجل تحقق الرفاهية للجميع، فلابد إذن أن ننظر لهذه المفاهيم من زوايا ثلاث :

١- من زاوية علاقتها بالوطن.
٢- من زاوية علاقتها بالذات.
٣- من زاوية علاقة الفرد بالآخر.

فالإنسان يعيش فى وطن يلتزم بان يوفر له ما يكفى من حقوق تبعًا لاحتياجاته الفعلية التى يراها الوطن كفيلة بتحقيق القدر المناسب للرفاهية، ومن هذا الوطن يكتسب حق المواطنة والحقوق التى ترتبط بالانتماء لهذا الوطن، وحتى يكتسب كل هذا لابد أن يتبنى كل القيم الثقافية العامة للمجتمع، والتى تحقق له الهوية العامة بصرف النظر عما إذا كانت له هوية خاصة تميزه كعضو فى جماعة عن فرد آخر عضو فى جماعة أخرى فى نفس المجتمع، والهوية العامة تفرض على المواطن كثيرًا من الالتزامات ما بين واجبات لابد من القيام بها حتى يكتسب حق المواطنة، ومسئوليات لابد من القيام بها باعتباره مكتسبا للهوية العامة لهذا الوطن.

من جانب آخر، لابد أن يدرك الفرد أن رفعة الوطن وتميزه تتحقق برفعة وتميز أفراده، ومدى كفاءاتهم، ويفرض هذا على الفرد واجبات ومسئوليات تجاه الذات، ورفعتها، مسئوليات لابد من الالتزام بها.

أخيرًا لا يعيش الإنسان فى عزلة عن الآخرين الذين يشاركونه الحياة فى نفس الوطن ويتمتعون جميعًا بنفس حقوق المواطنة، مهما كان بينهم من اختلافات فى بعض الجوانب الإنسانية أو الثقافية؛ من هنا كان لابد أن يدرك الفرد تمامًا أن أبناء الوطن الواحد لهم نفس الحقوق وعليهم نفس الواجبات حتى ولو اختلفوا فى بعض جوانب الهوية الخاصة / الفردية، إلا أنهم فى النهاية مواطنون فى وطن واحد لابد أن يحظى كل منهم باحترام الآخر واحترام خصوصياته، وأن ينكر كل منهم ذاته وصالحه الخاص من أجل صالح الوطن. وتوفر العدالة الاجتماعية والمساواة لكل المواطنين داخل الوطن.

محور الحقوق

إن كنا نبدأ بمحور الحقوق، فذلك لأنه المحور المرتبط بتعزيز مفهوم المواطنة التى تسبق كل شيء، وتحقق الانتماء الذى يسعى كل فرد لتحقيقه حتى يكتسب الشعور بالأمان والأمن داخل الجماعة التى ينتمى إليها، ذلك أن الانتماء لا يتحقق إلا للأوطان التى تسعى لتوفير الحقوق الأساسية للمواطن، والتى ترتبط بإشباع احتياجاته الأساسية التى تساعد على استمرار الحياة والحفاظ عليها وتحقيق الرفاهية، وتكون بذلك أوطان جذب لا طرد. ونقول الاحتياجات الأساسية من منطلق أن هناك خلطًا لدى البعض نحو تحديد تلك الاحتياجات والتى يتفق الخبراء والمتخصصون على أهميتها لسلامة المجتمع وأبنائه، والأمنيات التى يتمناها الأفراد ويطالبون بها مع صعوبة تحققها على المستوى الجمعى، وما يفضله البعض لذاته ولا تعتبر من الاحتياجات الأساسية بل توضع فى مصاف الأطماع فى كثير من الأحيان، وتكون دافعًا للانحراف.

الحقوق التى يتطلبها الفرد:

- المساواة.

- العدالة الاجتماعية.

- الحرية في التعبير.

- التعليم.

- الصحة.

- تنمية التذوق الجمالى.

وهنا لابد أن يؤكد الخطاب الموجه للطفل على أهمية هذه الحقوق وممارستها لصالح الفرد، وأسلوب المطالبة بتوفيرها والحفاظ عليها، كمكتسبات تعمل الأوطان من خلالها على تحقيق رفاهية المواطن، وأن نربى أطفالنا على أن يتناولوا منها ما يكفيهم فقط، دون اللجوء إلى أساليب غير أخلاقية للحصول على المزيد منها حتى وإن لم تكن إليها حاجة، فالجميع سواسية أمام هذه الاحتياجات، وأن نرشدهم إلى الفرق بين الاحتياجات الفعلية، والمطالب الذاتية، وما يفضله البعض أحيانًا.

محور الواجبات

وحتى يستحق المواطن ما له من حقوق لابد أن يقوم بتنفيذ ما يتطلبه الوطن منه من أعمال تقف فى صف الواجبات، فالأوطان لا ترتقى إلا بجهد أبنائها، وما عزة الأوطان ورفعتها إلا من عزة أبنائها ورفعتهم، وتصنف الواجبات إلى :

١- واجبات نحو الوطن :

- الولاء.
- الحماية.
- احترام القانون.
- الحفاظ على البيئة والموارد البيئية.
- الحفاظ على المنشآت العامة.
- العمل على رفعة الوطن.

٢- واجبات نحو الذات :

- الرفعة والتميز.
- الكرامة.
- محاسبة الذات.
- المعرفة الجيدة.

٣- واجبات نحو الآخر :

- الاحترام العام.
- احترام الخصوصية.
- احترام حقوقه.
- إنكار الذات.
- التكافل الاجتماعى.
- الإيمان بالمساواة.

وهنا يجب أن نُعلم الطفل كيف يؤدى هذه الواجبات بحب، فهى فى النهاية ستصب فى صالحه من خلال صلاح الوطن، وأن هناك تكاملاً بين الجميع فى خدمة الوطن ولو قصر

فرد فى واجباته فسوف يؤثر هذا على المنظومة الكلية فى أداء الواجبات؛ مما يضر بصالح الوطن، ويؤثر بالسلب على تلبيته لحقوق مواطنيه.

محور المسئوليات

وهى جملة المبادئ المحددة للسلوك سواء فى طلب الحقوق أو القيام بالواجبات، وتفرضها الهوية العامة للمجتمع وما اكتسبته من ثقافة المجتمع، ويمكن حصرها فى:

- احترام الرأى والرأى الآخر.
- احترام الاختلاف.
- نبذ التعصب.
- المشاركة فى صنع القرار من خلال الحرص على المشاركة فى الانتخابات.
- الولاء للوطن.
- الانتماء للمؤسسات، فهو جزء من الانتماء للوطن.
- مصلحة الوطن قبل مصلحة الفرد.

ولابد أن نوضح لأطفالنا أن احترام الرأى يأتى من خلال المعرفة والدراسة والتدقيق الجيد قبل إصدار أى قرار، فالقرار العفوى المتسرع الذى يفتقد إلى دراسة الموقف أى موقف بشكل كامل ودقيق، سيؤدى إلى قرار ناقص؛ وبالتالى توخى المعرفة والدقة من الأهمية بمكان لاتخاذ القرارات، ومع ذلك لابد أن يكون هناك روح من الانصياع لرأى الأغلبية المبنى على الإقناع والاقتناع، فالأغلبية المتشددة لا تصلح لاتخاذ القرار، لكنها الأغلبية المرنة المتفهمة التى تقنع وتقتنع، وعندها لابد من احترام رأيها، حتى وإن كان رأى فرد، حتى ولو كان هذا الفرد مختلفًا فى بعض عناصر الهوية الخاصة، لكنه فى النهاية مواطن يعمل مثل الجميع لصالح الوطن، وحظى رأيه بموافقة الأغلبية.

وهذه نقاط لموضوعات يقترح الكتابة فيها لأطفالنا، وهناك تجربة تمت مع طالبات الفرقة الثانية - الدراسات العليا فى الدبلوم الخاص بأدب الأطفال ٢٠١١، كان من بعض نتائجها:

- تشير إحدى الطالبات إلى أهمية الكتابة للأطفال عما يجب أن يلتزموا به من سلوكيات تعزز من تقديرهم لذاتهم، ومنها:

١- الاعتراف بالخطأ.

٢- تجنب القيام بأفعال تعتذر عنها فيما بعد.

٣- احترام الوقت والمواعيد.

٤- الالتزام بالوعود.

٥- احترام خصوصية الآخرين.
٦- احترام الرأى الآخر.
٧- عدم استخدام العنف والقوة لحل المشكلات.
٨- احترام آراء الكبار.
٩- التشاور والمشورة مع الاقتناع.

وتذكر قصة بعنوان "رياح التسامح".

"خرج صديقان ذات يوم فى رحلة للصحراء، وأثناء سيرهما اختلفا فى أمر من الأمور، واشتد الجدل بينهما فصفع احدهما الآخر على وجهه، فلم يرد إليه الإهانه، وكتب على الرمال (فى هذا اليوم صفعنى أعز أصدقائى على وجهى) وسارا بعد ذلك فى طريقهما، وبعد فترة صادفا بئرًا فنزل الأول ليحصل على بعض الماء، فانزلقت قدماه وسقط فى البئر وكاد يغرق لولا محاولات صاحبه لإنقاذه، وعندما خرج من البئر كتب على صخرة بالقرب من البئر (اليوم أنقذنى أعز أصدقائى من الغرق).

تعجب الصديق وسأله لماذا كتب فى المرة الأولى على الرمال، وفى الثانية على الصخر؟

ابتسم الأول وقال : فى المرة الأولى عندما أهنتنى كتبت على الرمال حتى تأتى رياح التسامح وتمحو ما كتبته عن الإساءة فتنسى، أما الكتابة على الصخر فستبقى ذكرى طيبة لا تنسى".

أما القصة التالية فهى تتحدث عن ضرورة أن يكون للفرد وطن، وهى بعنوان "العصفوران الصغيران".

"التقى عصفوران صغيران على غصن شجرة زيتون كبيرة فى السن، هز العصفور الصغير ذيله وقال : "مللت من الانتقال من مكان لمكان أتمنى العثور على مستقر آمن دافئ".

ضحك العصفور الثانى، قال بسخرية : "أنت دائمًا تتذمر، نحن معشر الطيور خلقنا للارتحال، كل أوطاننا مؤقتة"، أجاب الأول : "أحرام أن يكون لنا مع هذا وطن هوية عنوان لا يتغير، نطير هنا وهناك ونعود إليه؟"، ثم نظر إلى الشجرة وقال : "انظر لهذه الشجرة كم عاشت هنا فى هذا المكان حتى رسخت جذورها وأصبحت جزءًا من هذا المكان، هل يمكن نقلها من هنا، أعتقد لو نقلت إلى مكان آخر فلن تستطيع الحياة؟"

ابتسم العصفور الثانى وسأل صديقه : "هل تريد تغيير طبيعتنا؟ نحن غير الشجرة، وطننا الكون كله، الكون لنا خفقة جناح".

رد الأول : أفهم ومؤمن بذلك لكنى أحلم بوطن أنتمى إليه".

فجأة ظهرت سحابة سوداء فى السماء، خاف العصفور الثانى، وطلب من الأول أن ينطلقا قبل أن تغرقهما الأمطار، لكن الأول رجاه أن يتخذا من الشجرة درعا يحميهما، لكن الثانى لم يستمع إليه وانطلق فى السماء، بحث صديقنا عن مكان آمن فى جزع الشجرة، وجد حفرة كبيرة احتمى بها من الأمطار، وأطلق عليها اسم عش، وحمل إليها كل ما يساعده على الحياة بعض من أوراقها ينام عليها وببذورها ليأكل منها، وسكن العش واتخذه وطناء ومرت الأيام، وجاوره فى الوطن عدد من العصافير، كونا جماعة ترتحل ما ترتحل وتعود لعشها، عندما يشتد البرد فتجد فيه الدفء، عملت الجماعة جاهدة على أن تبقيه نظيفا، آمنا.

عاد العصفور المهاجر ذات يوم إلى الشجرة وجدها عامرة بالعصافير تعجب، سألهم ألا يطيروا ويستمتعوا بالكون الرحب؟، أجابوا جميعًا : نعم وهذا لم يحرمنا من الحفاظ على وطن لنا، يطعمنا ويحمينا، ونعيش به معًا أوقات طيبة، عندما نمل الترحال، وطلب أن يعيش معهم، فضحك العصفور الأول، "بالطبع فقط عليك أن تؤمن بأنه وطنك وتعمل على حمايته معنا، وتحافظ عليه نظيفًا آمنًا.

والساحة براح لن تضيق على جهد صادق، المهم أن يضع صاحب هذا الجهد أمام ناظريه، صالح الوطن ومستقبله، والحلم بالحرية والعدالة والمساواة الذى أمسك الجميع ببدايات تأويله ويسعون جاهدين لتحقيقه، ولن يتحقق إلا على يد أطفالنا عندما يشبوا عن الطوق ويتولوا زمام هذه الأمة؛ من هنا تأتى أهمية ما يقدم إليهم اليوم من محتوى خطاب تعليمى وتثقفى، يقدم إليهم النماذج والخبرات التى تعدهم للأدوار العظام التى تنتظرهم فى الغد، فلنكن نحن على قدر المسئولية، ولنتكاتف من أجل خطاب ثقافى تعليمى حديث، يتناسب مع أهمية الوطن والأمل فى غد مختلف.